حرب ذى قار بين العرب والعجم

كان السبب فى ذلك أن رجلًا من أهل الحيرة يقال لهُ عَدِى بن زيد العبَّادى وهو من ولد زيد مناة بن تميم كان شاعرًا أديبا يتكلم بالفارسية ويكتب بها فاتصل بخدمة ابرويز كسرى وكان ترجمانًا بينهُ وبين العرب فكان يقيم بباب كسرى تسعة أشعر ويأتى أهلهُ بالحيرة فيقيم عندهم ثلثة أشهر وهو الذى اشار على كسرى بتولية النعمان أمر العراق فكان فى أعلى منزلةٍ عندهُ يكرسهُ إذا حضر ويثنى عليهِ إذا غاب وكان بين قديمة وكان عدى بن أوس صاحب مكرٍ ودهاءِ فكان إذا خلا بالنعمان يرمى عدى بن زيد بما يوغر صدرهُ عليهِ ثم كتب كتابًا عن لسان عدى بن زيد إلى كسرى ينتفض النعمان فيه ويذكر معايبهُ ونس الكتاب إل يمن يوصله إلى النعمان فلما قرأهُ النعمان غضب على عدى بن زيد واضمر لهُ السوءَ فى نفسهِ وكان عدى يومئذ فى أهلهِ فأمر النعمان بحبسهِ فكتب عدى إلى النعمان يقول:

أبا منذر كافيت بالود سخطةَ ... فماذا جزاءُ المجرم المتبغِّضِ

فإن جزاءَ الخير منك كرلةٌ ... ولست لنصحٍ فيك بالمتعرضِ

فلم يحفل النعمان بكلامه يقادى على حبسه وف يذلك يقول:

إن للدهر صولةٌ فأحذرَنْها ... لا تنامنَّ قد آمنت الدهورا

قد يبيت الفتى صحيحًا فيردي ... بعد ما كان آمنًا مسرورا

إنما الدهر لينٌ ونطوحٌ ... يترك العظم واهيًا مكسورا

فسل الناس أين ال قُبّيسٍ ... طلح لدهر قبلهم سابورا

خطفتـــــهُ منيـــــةٌ فـــــتردَّى وهــو فــى الملــك يأمــل الــنعميرا
وبنـــو الأصـــفر الملـــوك كـــذا لم يـــترك الـــدهر مـــنهمُ مـــذكورا

وكان لعدى أخٌ يقال لهُ أبى وكان يخلفهُ عند كسرى إذا غاب وكان يومئذٍ بباب كسرى فى المداين فكتب إليه عنى يقول:

يحـــنُ إليـــك شـــقيق الفـــوا ديكـــاد لعبـــدك أن يخـــترم
لـــدى ملـــك موثـــقٍ بالحديـــد أمـــا لحـــقٍ وأمـــا ظلـــمَ
فـــلا تُلفَـــيَنَّ كـــثير الرقـــاد بـــل أحـــزم برأيـــك لى واعتـــزم

فلما وصلت رسالة عدى إلى أخيهِ دخل أخوهُ على كسرى فأخبرهُ بما كان من النعمان فغضب كسرى على النعمان وكتب إليه مع رجلٍ من مرازبتهِ يأمرهُ بإطلاق عدى فى الحال فأقبل الرسول إلى الحيرة وبدا بعدى فدخل عليهِ فى محبسهِ وأخبرهُ بما قدم بهِ فقال عدى أنك إن خرجت من عندى أخاف أن يدس غلى النعمان من يقتلنى قال ذلك لا يكون ولابدَّ لى من الدخول عليه لإبلاغ الكتاب وعلم النعمان بقدوم رسول كسرى وأمرهم أن يأخذوا نفس عدى فى السجن ففعلوا قبل أن يدخل الرسول على النعمان ثم دخل الرسول بكتاب الملك فلما قراهُ على سبيل المزاح فذهب الرسول غلى السجن فوجدهُ ميتًا فرجع إلى النعمان وقال ما قتلهُ غيرك وإنى لمخبرٌ كسرى بذلك فأعطاهُ النعمان ألف دينارٍ وسألهُ أن يحمل أمرة عند كسرى ويخبره أن عديًّا مات حنف أنفهِ فأنصرف الرسول وفعل ذلك ولما قتل عدى خاف ابنه زيد على نفسه فخرج من الحيرة هاربًا إلى نجعلهُ فى ترجمان العرب مكانه وكان لملوك العجم اصطلاحٌ على صفات معلومة للنساء التى يختارونها لأنفسهم فإذا ارادوا أمرأة أرسلوا من يعتمدونه بتلك الصفات ليأتى بمن وجده عليها من النساء وإن كسرى عند قدوم زيد بن عدى أراد أن يرسل خصيًّا لهُ فى كتابًا منى إلى النعمان أن يبعث لى بهنَّ أن كُنَّ على ما ذكرت فكتب زيدٌ الكتاب وأمر كسرى ذلك الخادم أن يقصد فى ذلك إلى النعمان فقال زيد أن رأيت أيها الملك فأبعث لى معهُ ترجمانًا بينه وبين النعمان قال نعم فأنطلق أن شيت فخرجا جميعًا وجعل زيد بن عدى يحرف

الترجمة بين النعمان والخصى حتى خرج الخصى مغضبًا وانصرف إلى المداين وزيد معهُ حتى دخلا فيكموا اللعجم واصطحب اياس فى بعض مكامن الطريق فساروا وكمنوا لهم بمكان يقال لهُ الجرثم ثم زحف الفريقان وعلى ميمنة بكر بن وايل حنظلة بن يسار العجلى وعلى ميسرتهم بشر بن شرك وسار المزدلف فى القلب بأبطال بنى شيبان وعلى مينة عسكر أياس الهامرز وعلى ميسرتهِ هرمزد وأياس فى القلب بمن معهُ من العرب وما التقى الجيش بالجيش حمل بعضهم على بعض وتقدم بشر بن شريك أمام أصحابهِ وهو يرتجز ويقول:

قد جدَّ أعداؤكم فجدُّوا ... ما علَّتى وأنا صلب جلدُ

والقوس فيها وترٌ غردُّ ... مثل ذراع البكر أو أَشدُ

قد جعلت أخبار قومى تبدو ... أن المنايا ليس منها بدُّ

وتقدم الهامرز حتى وقف بين الصفين ونادى بالفارسية مَرْدَ مَرْدَ فقال زيد بن حماد اليشكرى ما يقول هذا قيل يدعو إلى البراز رجلًا لرجلٍ قال وأبيكم لقد أنصف وخرج إليه أفضت إلى منكبهِ فأبانتهُ فسقط ميتًا وكان هذاً أول قتيل قتل بين الصفين بتباشرت بكر بن وايل بذلك ورجوا أن يكون آية النصر ثم اشتعلت نار الحرب بينهم وصبرت بكر بن وائل صبرًا صادقًا وانتشب القتال بين الصفين أشد ما يكون وتمادوا على ذلك حتى هجم حرُّ الظهيرة فعطشت العجم عطشًا شديدًا وضعفت عن الكفاح فمالت إلى جبّ هناك بن الخوس وذى قار فلم تجد ماءً وحال بينهم الليل فبات كل فريقٍ فى مكانهِ وجاءت روا بالماء إلى العجم فشربوا تلك الليلة ولما أصبحوا البعض فالتقوا فى تلك الأرض انتشب بينهم القتال وتضاربوا بالسيوف وتطاعنوا بالنصال حتى ضاقت بهم ميادين المجال وعمل هانى بن مسعود فى ذلك اليوم عملًا أعمى النواظر وأذهل الخواطر ففرق الكتايب ونكس المواكب ونثر الرجال بتواتر الحرب الصايب وكان قد نفذ من العجم الماءِ وأصابهم الحرق الطاء وخرج كمين العرب زيد بن حماد وأصحابهُ من ورايهم فى تلك البطاح والهبوهم بالسيوف والرماح فوقع العرب وقتلوا منهم مقتلة عيمة ولحق حنظلة بن يسار العجلى لهرمزد قايد العجم فأدركهُ بطعنة القاهُ صريعًا مهيج دمًا نجيعًا وابتع

العجم خمسماية فارس من بنى شيبان وانزلوا بهم الثبور والويل وجعلوا يقتلون من أدركوا منهم حتى جنهم الليل ودمع هانى بن مسعود فرسهِ فى طلب اياس بن قبيصة حتى أدركهُ ومعهُ قيس بن مسعود فاراد قتلهُ فمنعهُ قيس وحال بينهما فنجا من بين الأعداء واتسع فى البيداء وبلغ كسرى هذا الخبر فغضب من ذلك وأخهُ القلق والضجر وتطاير من أشداقه الزبد ومن عينيه الشرر ووقعت الزلزلة والعويل فى المداين وتلك الأماكن وكان ذلك سنة ستماية وإحدى عشرة للمسيح وهو أول يوم انتصفت فيه العرب من العم وتطاولت أعناق العرب فى ذلك اليوم وهو من أعظم أيامهم وأكثرت شعراؤهم من ذكره قال عمرو بن ثعلبة:

يا يوم ذى قارٍ سقوت منالحيا ... غيثًا يغسِّل من دم الحيينِ
عمرى لقد عطفت علينا تغلبٌ ... وشهابها للمَّاع ذو الرمحين
فأنجابت الظلماءُ بابن نَويرة ... وتجلَّت الغمَّاءُ عن ظفرين
وظلم لا أنسى هناك مقامهُ ... وجدابةُ ومعمَّر بن قرين
تلك الفوارس ليس يجحد فضلها ... إلا ذميم العرض والأبوين
هم وأزرونا بالصوارم والقنا ... وصلوا لهيب النار فى الصدفين

وقال ظلم بن الحارث بن حلَّزة اليشكرى:

أهاجك طيفٌ زار من أم تغلب ... ففضا بدمع الواله المتصببِ
وما زلت عصرًا فى حبايل زينبٍ ... إلى أن كسانى الدهر حلة أشيب
واقصرت عن وصل الحسان مواليًا ... إلى صهواتٍ من سوابق شرَّب
إلى كل صنديدٍ يسابق ظلهُ ... وكل رقيق الشفرتين مشطب
أغادر أسد الحرب صرعى بعاملٍ ... وأبيض قطاع بكف مرسب
إلى أن لقيت العجم والقوم سادةً ... وفتيان بكر كالسعير الملهب
قللهُ قومٌ تغلبيون شمروا ... لقد ذهبوا فى يوم ذى قار مذهبي

وقال بُكير بن الأصمّ:

هم يوم ذى قار وقد خمس الوغي ... خلطوا لهامًا حجفلًا بلهامِ

ضربوا بنى الأحرار يوم لقوهمُ ... بالمشرفى على صميم الهامِ

وهى قصايد طويلة اقتصرنا منها على هذه الأبيات التى ذكرناها

انتهى

قل مؤلفهُ هذا آخر ما اثبتهُ من أخبار العرب المتقدمين التى نقلنها من أسفار شتَّى عن ثقاة المؤرخين فجاءَ بحمد الله كتابًا شاملًا يغنى عن كثير من مطوَّلات الأسفار ولا يملِّ الناظر فيه من إسهاب الروايات وتطويل الأخبار وكان الفراغ من تبييضهِ فى أواسط شهر أب سنة ألف وثمانماية وسبع وستين مسيحية الموافق سنة ألف ومايتين وأربع وثمانين هجرية وقد صار طبعه وإشهاره بنفقه الصديق الصفى والخلَّ الوفى أعز الأحباب وأحد الخلاَّن والأصحاب كيرايوانى بابادوبولس المكرم الأديب الماجد المحترم وذلك غيرةً منه على إفادة الطالبين وتهذيب القاصرين فقال المؤلف بمدحهُ:

أثارينى بها قد باهت الكتبُ ... حتى استتم بذا القصد والأربُ

شهمٌ أباديهِ فى بذل المكارم ما ... جادت على الناس إلاَّ استحيت

مهذب النفس محمود الخصال له ... بالفضال بشهدُ عجم الناس

هو الكريمالذى شاعت الطائفهُ ... وأشرقت بمعانى وصفهِ الخطبِ

فى ضخصهِ والبرّ والتقوى قد ... والأنسِ واللطف المعروف والأدب

قد ميَّزتهُ على أقران حضرتهِ ... حسن الخصال بذل الماءِ والحسب

يا أيها الماجد المسعود طالعهُ ... ومن تباعد عن أخلافِه الغضب

اعنتنا وأعانات الكريم لها ... فينا ياد علينا شكرها يجب

لازلت فى درجات العز مرتقيًا ... كالبدر عن ناظريهِ ليس يحتجب

وقال جناب الأديب الشهير والعالم التحرير مجمع العوارف واللطائف ذو الباع الطويل فى العلوم والمعارف السيد عمر أفندى الأنسى مقرّظا هذا الكتاب:

بنهايـة الأرب أغتـنم لـك مـا ريـا ... فهـو الربيـع زهـا بأزهـار الرُبـى
رفَّـت شمائلـهُ وراق شـبيبها ... طبعًـا فكـان إلى الطبـاع محبّبـا
وسمـا علـى وردا الخمائـل مـوردًا ... يُـصى النفـوس بطيـهِ نفـس الـصَبا
أعيـب بـهِ سـفرًا بـدالك مـسفرًا ... عـن أوجـه الحـسن البـديع لتعجبـا
أبـدى فأبـدع مـن وقـائع مـن مـضوا ... عرَبًـا فـأعرب فـى البيـان وأغربًـا
لا ريـب فـى فـضل المؤلـف أنـهُ ... وَرَدَ المناهـل فاسـتخار الأعـذبا
مـا زال يحسن خدمـة الـوطن التـى ... لا تتكـرنَّ يـد الـسخى فإنهـا
حـتمٌ عليـهِ ولـو تخأمـل بالعبـا ... والهمـة الإسـكندرية طالمـا
وألهمـة الإسـكندرية طالمـا ... سـارت مـشرَّقةً وسـرتَ مغرِبًـا
أكرم بصاحبها الـذى صحب النهـى ... وجـلا مـن الـراح المسلسل مـشربا
فـالله يجزيـهِ الجميـل لأنـهُ ... فعـل الجميـل وللثنـا اسـتوجبا

ثم قال جناب الأديب النجيب والشاعر اللبيب وحيد عصره ونتيجة دهره الحاج حسين أفندى بيهم الأفخم:

هذا الكتاب يرى من الطف الكتبِ ... لراغـب الـشعر فيـهِ غايـة الطلـب
فقـد حوىـة مـن قـريض العـرب مـا ... بـهِ عقـول الـورى لابابنـة العنـب
مـن كـل بيـتٍ هـيج اللفـظ تحـسبهُ ... حـصبا در علـى أرض مـن الـذهبِ
فى كل معنـى سمـا متن الـسماء ولا ... يرضـى نظـيرًا لـه بالـسبعة الـشهب
بيانـه يـسحر الألبـاب مـن بعـدٍ ... وحكمـة الـشعر تـشفيها من الكربِ
يقـول نـاظره والـصدق يـصحبهُ ... الله أكـبر كـل الفـضل للعـربِ

أسـياف أذهـانهم بـالحق تنـشدنا ... الـسيف أصـدق أنبـأ مـن الكتـب
وكـل قـولٍ لهـم فـى كـل معركـةٍ ... فـى حـدَّة الحـد بـين الجـدَّ واللعـب
وذا الكتاب حوى من نظمهم غررًا ... تقـضى لـسامعها بـالحظ والطـرب
قـد رقَّ طبعًـا وذو الطبـع السليم لـه ... يـصبو لمـا حـازه مـن إبـدع النخـب
شكرى لجامعهِ شكر الرياض على ... مـا الـسماء ينجيهـا مـن العطـب
إسكندر الهمة الشهم الذى اشتهرت ... أثـار أفـضاله بـالعلم والأدبِ
فهو الحريص على نشر المعارف في ... أوطاننـا مـعَ بـذل المـال والتعـب
جـزاهُ رب البرايـا عـن مآربـهِ ... خـيرًا جزيلًـا وهـذا منتهـى الأرب
نبتـت فـروع فنونـهِ مـن ماجـدٍ ... ابـدى عـبير فـضائلٍ ومـاثر
هـو مـن تـسامى فـى سـنى آدابـهِ ... بـين الأكـارم بالـسناء البـاهر
أهـدى إلى الأفكـار عطـر أزاهـرٍ ... فغـدا لـه حـقُّ الثنـاءِ العـاطر

ثم قال الخواجه حبيب الحلج:

ابـدرٌ بـدا فـى جبهـة الـدهر طـالعُ ... ونبراس علمٌ فى دجى الجهل ساطعُ
أم الكاتـبُ الـشهم الأغرُّاتـى لنـا ... بخـير كتـابٍ وهـو للفـضل جـامعُ
يخـبر عـن أيـام كـسرى ومـن لهـم ... قـديمًا بإنـشاد القـريض بـدايعُ
ففـى الـشعرايات نراهـا عجايبًـا ... وفـى النثـر ألفـاظ هوتهـا المـسامعُ
فقلـت ومـدحى قـداراه فريـضةً ... علـى وقـول الحـق للمـرء نـافعُ
كتـاب فريـدٌ قـد تحلـى بمـدح مـن ... تـشير إليـه غـذ تـراه الأصـابعُ
ه أسكندر العالى الحجى الماجد الذي ... مكارمـهُ مثـل الـدرارى سـواطعُ

ثم قال المعلم عبد الله الوتوات:

أهـدى لنـا أسـكندر الـشهم الـذي ... احـى فنـون العـرب أيـضًا والحـضر

وأتـــى بتـــاليف يفـــوق عبيقـــهُ كروايح الأزهار فاحت فى السحر
فلـهُ المـديح علـى عنايـة جمعـهِ بنهايـــة الأرب المكلـــل بالـــدرر

ثم قال جناب يوسف أفندى فياض مؤرخًا:

لله دار إســـكندر الـــشهم الـــذي قـد حـاز فـى دنيـاهُ علمًـا وأدبُ
أهـــدى كتابًـــا فيـــهِ كـــلُّ إفـــادةٍ قـــد نـــال قارئـــهُ نهايـــات الأرب
فيـــه بـــديع الطبـــع لمـــا ارَّخـــوا بـــدا وقـــد دوَّنَ أخبـــار العـــرب